التكريم الكوني والتكريم الشّرعي للإنسان في القرآن الكريم

The Cosmic and the Religious Honor of Man in the Holy Quran

د. أسامة بلرهمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة (الجزائر)

Oussamablerahmi07@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/08/14 **تاريخ القبول: 2020/08/31**

ملخص:

نسعى من خلال هذا البحث إلى تفصيل القول في حقيقة شرعية تناولها الفكر المعاصر على غير المحمل الشّرعي، فكان لابدّ من البيان والتوضيح دفعا للالتباس والغموض، وصيانة للحقائق الشّرعية عن أيّ تغيير أو تبديل، فتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، وهذا ما نريد توضيحه بالنسبة للتكريم الإلهي للإنسان، فدائما ما نقرأ عن التكريم الكوني وتفضيل الله تعالى للإنسان بالعقل وبتسخير المخلوقات له، دون ربط ذلك كما أراده الله تعالى وبيّنه في كتابه الحكيم بالتكريم الشّرعي الذّي هو الغاية والمقصود منه.

الكلمات المفتاحية: الإنسان، التكريم، العبادة، المناسب، الحكمة.

Abstract:

Through this research, we seek to elaborate a statement about a religious fact that contemporary thought has dealt with in a non religious way. It was necessary to clarify this point in order to avoid ambiguity and to preserve religious facts from any changes or modifications. Delaying truth is not permissible, and we intend to clarify Allah's generosity towards mankind. We always read about Allah's kindness and favor of human beings with reason and submission of all creatures to their service without relating these facts that Allah's Will as expressed in the Holly Quran; honoring man with worshiping and devotion ; is the ultimate objective the existence of man on earth.

***keywords**:* the human, preference, worship, appropriateness, wisdom

المنارة للاستشارات

مقدّمة:

عرضت أمانة التكليف على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وعرضت على بني الإنسان فحملها وتجشّم عناء تأديتها، تكريما من الكريم وتشريفا من المولى عزّ وجلّ لما حباه الله به من تفضيل على سائر المخلوقات، فميّزه بالعقل الذّي هو مناط التكريم الإنساني والتشريف الإلهي، فأمره بمقتضى ذلك ونهاه وتوعده ووعده وأرسل إليهم رسلا وأنبياء هم قادة وسادة يبيّنون لهم طريق الخير والتوحيد ويأمرونهم به وينهونهم عن طريق الفساد والشّرك والضّلالة ويخوّفونهم منه، فكان بني البشر بعد ذلك على سبيلين: إمّا شاكرا وإمّا كفورا، ومنهم سابق بالخيرات ومنهم مقتصد ومنهم ظالم لنفسه وهذا كلّه تحقيقا لوعد ربّها الجاري على حكمته في ابتلاء بني الإنسان القاضي بجعل البشر جميعا على فريقين: فريق في الجنّة وفريق في السّعير، فالسّعيد منهم من حافظ على الأمانة واتبع الرّسالة، والشقيّ منهم من خان الأمانة وردّ الرّسالة، وهذا حقّ وعدل فمن تكلّف شيئا كلّف به، فالإنسان لمّا تكلّف الأمانة كلّف بمقتضاها، فالتشريف والتكريم نعمة تحمد وفضيلة تشكر، وقد بيّن الله تعالى عن طريق أنبيائه ورسله سبيل الحمد والشّكر فقال تعالى: ﴿**ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما**﴾(النّساء 47).

– ولمّا كان الأمر على هذا أحببنا أن نبيّن ونوضّح هذا العنوان بطرح هذا الإشكال:

*** الإشكالية:**

كثر الكلام مؤخرا في إطار الكلام عن العلاقات الإنسانية عن تكريم الله لبني الإنسان وأنّ ما كرّمه الله خلقا لا يمكن أن ينتقص بحال، فأحببت أن أبيّن وجهة النّظر القرآنية لحقيقة التكريم الإنساني، لذا كان السؤال على النّحو التّالي:

ما حقيقة التكريم الإنساني من خلال الآيات القرآنية ؟

*** أهمية البحث:**

تكمن أهمية البحث في النقاط التّالية:

–أنّه يفصّل القول في حقيقة شرعية أعطيت مؤخرا مفهوما معاصرا مغايرا للمفهوم الشّرعي.

–أنّه يربط بين الوسائل بالمقاصد، فالوسائل لها أحكام المقاصد.

المنارة للاستشارات

*** الهدف من الدّراسة:**

وأمّا الهدف من كتابة هذا المقال فهو التأكيد على أهميّة البحث والنّظر في مختلف الأفكار المعاصرة، التّي ترد علينا من هنا وهناك، فوجب البحث فيها للتمييز بين الصّحيح المقبول والسقيم المردود، خاصّة وأنّ مشكلة العصر هي مشكلة الأفكار.

*** منهج البحث:**

– اعتمدت في هذا المقال على المنهج التحليلي، وهو المناسب لمثل هذا المقال، ففيه تحليل لحقيقة التكريم وبيان أقسامه ومدلول كلّ قسم.

*** خطّة البحث:** وللإجابة عن هذه الإشكالية وضعت خطّة على النّحو التّالي:

مقدّمة: تكلّمت فيها عن أهمية البحث والهدف من دراسته، مع بيان منهج البحث وأهمّ إشكالاته والتّي أجبت عنها من خلال الفروع التّالية:

الفرع الأوّل: معاني التكريم لغة واصطلاحا.

الفرع الثّاني: أقسام التكريم في القرآن الكريم.

الفرع الثّالث: بين التكريم الكوني والتكريم الشّرعي.

خاتمة: أهمّ النتائج والتوصيات المستخلصة من البحث.

الفرع الأوّل: التكريم لغة واصطلاحا

أ– **لغة:** التكريم من الكرم، والكرم نقيض اللّؤم، والكريم: هو الجامع لأنواع الخير والشّرف والفضائل، أكرم الرّجل وكرّمه: أعظمه ونزّهه[1]، والكريم: الصّفوح، ورجل مكرام: مكرم للنّاس[2]، قال ابن فارس: "الكاف والرّاء والميم أصل صحيح له بابان: أحدهما في الشّرف في نفسه أو شرف في خلق من الأخلاق"[3].

– يظهر من خلال هذا أنّ التكريم في اللغة من الكرم، والكرم: هو مجموعة الأخلاق الفاضلة والخصال الحميدة.

ب– **اصطلاحا:**

يتضح التعريف الاصطلاحي من خلال العودة لكلام المفسرين في بيانهم لقوله تعالى: ﴿**ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيّبات وفضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلا**﴾(الإسراء 70)، ذلك أنّ هذه الآية هي مرتكز الاستدلال في هذا الباب.

المنارة للاستشارات

بيّن القرطبي معالم وصور هذا التكريم بقوله في تفسير هذه الآية: «وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصّورة، وحملهم في البرّ والبحر ممّا لا يصلح لحيوان سوى بني آدم أن يكون يتحمّل بإرادته وقصده وتدبيره، وتخصيصهم بما خصّهم به من المطاعم والمشارب والملابس»[4]، وبمثله إجمالا ذكره الطبري حيث قال في تفسيره للآية ﴿**ولقد كرّمنا بني آدم**﴾: «بتسليطنا إيّاهم على غيرهم من الخلق، وتسخيرنا سائر الخلق لهم»[5]، ويؤكّد هذه المعاني أيضا الزمخشري في كشّافه إذ يقول: « كرّمه الله بالعقل والنطق والتمييز والخطّ والصورة الحسنة والقامة المعتدلة وتدبير أمر المعاش والمعاد»[6].

ونفهم من مجموع هذه التفاسير أنّ التكريم الإلهي: هو التفضيل الكوني الخلقي لبني آدم على بقيّة ما خلق الله، بل وجعل بقيّة المخلوقات مسخرة ذلولا لهم، قال تعالى: ﴿**والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون**﴾(النحل 8)، وقوله أيضا: ﴿**وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾(النّحل 12)، فهذا هو أصل التكريم والتفضيل، وهو كما هو واضح تكريم لجنس بني آدم عن سائر المخلوقات، ولكن الإشكال هل هذا التكريم هو لغاية أم لغير غاية ؟.

إنّ الكثير ممّن يتناول موضوع التكريم الإلهي للإنسان يتوقف عند هذا الحدّ ولا ينتقل إلى السؤال المنطقي الذّي يليه، والذّي مبدؤه لماذا ؟ لماذا كرّم الله الإنسان وفضّله على بقيّة مخلوقاته وسخّر له اللّيل والنّهار والشّمس والقمر ...؟ وهذا في الحقيقة تساؤل قرآني، قال تعالى: ﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون**﴾(المؤمنون 115)، قال ابن كثير في تفسيره للآية: «أي: أفظننتم أنّكم مخلوقون عبثا بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا»[7]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿**أيحسب الإنسان أن يترك سدى**﴾(القيامة 36)، قال البغوي في تفسيره: «أي هملا لا يؤمر ولا ينهى»[8]، إذا فلسان حالهم يقول: أيحسب الإنسان أن يترك بعد خلقه وتكريمه هملا وسدى بغير غاية ولا هدف، هذا يناقض حكمة الحكيم فتعالى الله عمّا يقولون علوّا كبيرا ؟.

المنارة للاستشارات

الفرع الثّاني: أنواع التكريم الإلهي للإنسان

قد مرّ معنا في التعريف الاصطلاحي النّوع الأوّل من أنواع التكريم الإنساني، وهو التكريم الكوني الخلقي باعتبار الطبيعة البشرية وتفضيلها على بقيّة المخلوقات، وهذا قد دلّت عليه آيات كثيرة قد مرّ معنا طرف منها، كما أنّ له مظاهر عدّة في القرآن الكريم نذكر منها:

1- تكليف الملائكة بالسجود لآدم عليه السّلام، قال تعالى: ﴿**إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين ● فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ● فسجد الملائكة كلهم أجمعون ● إلاّ إبليس استكبر وكان من الكافرين**﴾(ص 71- 74)، وهذا سجود على وجه التكرمة والتبجيل لآدم[9].

2- أنّه سبحانه خلق آدم أبو البشرية بيديه، فهذه مكرمة لآدم وجنس البشرية، قال تعالى: ﴿**قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين**﴾(ص 75)، قال الدّارمي رحمه الله: «وولي خلق آدم بيده مسيسا، لم يخلق ذا روح بيديه غيره، فلذلك خصه وفضله، وشرف بذلك ذكره»[10].

3- تكريم الإنسان بالعقل الذّي هو مناط التكليف وأصل حمل الأمانة التّي كلّف بها، يقول القرطبي رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**ولقد كرّمنا بني آدم** ...﴾(الإسراء 70)، يقول: «والصّحيح الذّي يعوّل عليه أنّ التفضيل إنّما كان بالعقل الذّي هو عمدة التكليف، وبه يعرف الله ويفهم كلامه ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله، إلاّ أنّه لمّا لم ينهض بكلّ المراد من العبد، بعثت الرّسل وأنزلت الكتب، فمثال الشّرع الشّمس، ومثال العقل العين، فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشّمس ....»[11].

4- تسخير ما في الكون للإنسان: وأدلّة ذلك في عدّة آيات قرآنية، نذكر منها قوله تعالى: ﴿**ألم تروا أن الله سخرّ لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة**﴾ (لقمان 20)، وما هذا التسخير إلاّ دليل على التفضيل والتكريم.

المنارة للاستشارات

هذا هو التكريم الفطري الكوني، وهو عام لكلّ بني آدم، فما في السماوات والأرض مسخر مذلّل لكلّ بني آدم، وكذا العقل هي مكرمة لجنس بني آدم، وهذا لا خلاف فيه، لكن هناك تكريم ثان هو أصل لمن قبله هو غايته ومقصده، لأجله أرسل الله الرّسل وسخّر الكون لبني آدم، وهذا التكريم هو التكريم الشّرعي الوصفي، الذّي به يتفاضل النّاس وترتفع درجتهم عند مولاهم وخالقهم، به يمتاز النّاس إلى فريقين فريق في الجنّة وفريق في السّعير لأجله خلق الله الخلق، قال تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾(الذّاريات 56) يقول ابن كثير رحمه الله في الآية: «ومعنى الآية أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم»[12]، وهذا النوع هو مناط الأمر والنّهي ومدار الحساب والعقاب وعليه عمل بني آدم، ذلك أنّ التكريم الأوّل جبلّي، هو منّة من الرحمان ليس للإنسان فيه كسب، ولا يحاسب الإنسان على ما ليس من كسبه، أمّا الثّاني فهو من عمل الإنسان وكسبه تحت مشيئة وإرادته، كما أنّه ينسب للإنسان أيضا سوؤه وحسنه، ولذلك يعاقب أو يثاب، ومنه قوله تعالى: ﴿**ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين**﴾(الزمر 65) فجعل الشّرك بالله سبحانه الذّي هو من عمل الإنسان سببا للعقاب وإحباط العمل.

ووجه كونه تكريما من ثلاث جهات:

1- أنّها الأمانة التّي جعلها الله تعالى في بني الإنسان في قوله تعالى: ﴿**إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا**﴾(الأحزاب 72)، وهي أمانة التوحيد والعبودية له سبحانه[13]، وهي أعظم حقّ لله سبحانه وتعالى[14]، فجعل الإنسان لتحقيق هذه الغاية، وهذا من تفضيله عزّ وجلّ للإنسان، فلم يتحملها غيره كما في الآية.

2- ومن جهة أخرى ما في ذلك من الرفع من قيمة الإنسان فلا يعبّد لغير ربّ العزّة، ولا يذلّ لغيره سبحانه وفي سبيل الله، وهذه هي العزّة والكرامة الحقيقية، لأنّه يأوي إلى ركن

المنارة للاستشارات

شديد، ركن التوحيد وطاعة المعبود بحقّ، قال تعالى: ﴿**من كان يريد العزّة فلله العزّة جميعا**﴾ (فاطر 10)، وقال أيضا: ﴿**ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولكنّ المنافقين لا يعلمون**﴾ (المنافقون 8)، قال الشنقيطي رحمه الله: «بيّن – جلّ وعلا – في هذه الآية الكريمة: أنّ من كان يريد العِزَّة، فإنّها جميعها لله وحده، فليطلبها منه، وليتسبّب لنيلها بطاعته – جلّ وعلا – فإنّ من أطاعه، أعطاه العزّة في الدّنيا والآخرة»[15]، ومن ظنّ أنّه يعتزّ بغير ذلك فقد خاب وخسر وذلّ، لذلك كانت هذه دعوة جميع الرسّل، قال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾(الأنبياء 25).

3- أنّها سبيل الدّخول إلى الجنان والبعد عن النّيران، فلا يدخلها الإنسان بوصفه الأوّل، بل بوصفه الثّاني، وهذه هي الكرامة الحقيقية، مادام أنّ الأولى لوحدها غير كافية، قال تعالى: ﴿**إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شرّ البرية ● إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ● جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه**﴾ (البيّنة 6– 8)، قال ابن كثير رحمه الله: «يخبر تعالى عن مآل الفجار من كفرة أهل الكتاب، والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسلة، أنّهم يوم القيامة ﴿**في نار جهنم خالدين فيها** ...﴾ ثمّ أخبر تعالى عن حال الأبرار – الذّين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصّالحات بأبدانهم – بأنّهم خير البريّة»[16].

انطلاقا ممّا مضى فإنّ التكريم القرآني قسمان: تكريم كوني وتكريم شرعي:

1- **التكريم الكوني**: جبلّي خلقي عامّ لكل النّاس، فهو معلّق بجنس البشرية أبناء آدم عليه السّلام.

2- **التكريم الشّرعي**: وصفي كسبي خاصّ بعباد الله الموحدين، فهو معلّق بوصف التوحيد والطّاعة.

المنارة للاستشارات

الفرع الثّالث: بين التكريم الكوني والتكريم الشّرعي

إنّ تكريم الله تعالى للإنسان المذكور في القرآن الكريم على مرتبتين وقسمين: تكريم كوني وتكريم شرعي، تكريم كوني لعموم النّاس وتكريم شرعي لخصوص الموحدين،كما بيّنت الآيات القرآنية أيضا –للنّاظر فيها– الرّابط بين التكريمين، وعن متعلّق كلّ منهما، ذلك أنّ أصل التكريم والتفضيل نعمة إلهية تستوجب شكر المنعم، وشكر المنعم واجب، وذلك لأصل النّعمة ولدوامها، قال تعالى: ﴿**وإذ تأذّن ربّكم لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد**﴾(إبراهيم 7)، وعليه فإنّ التكريم الكوني كنعمة ومنّة إلهية تستوجب شكرا وحمدا عليها، ويكون ذلك بتحقيق التكريم الثّاني وهو التكريم الشّرعي: وهو تحقيق التوحيد لله سبحانه وتعالى وإخلاص الطّاعة والعبادة له وحده، فالأوّل متعلّق بتكريم ثان هو الغاية والهدف منه والقصد من وجوده، يحقّق جواب لماذا عن التكريم الأوّل، وهو ثابت بما ثبت به التكريم الأوّل الكوني من الأدلّة، وهي النّصوص القرآنية ابتداء، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿**وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون**﴾(الذّاريات 56)، وكذلك قوله تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنّه لا إله إلاّ أنا فاعبدون**﴾(الأنبياء 25)، فغاية الخلق ودعوة الرّسل جميعا هي لتحقيق هذه الغاية، لذلك كان التكريم الشّرعي في حكم المقصد والغاية، والتكريم الكوني في حكم الوسيلة، ولنا أنّ الوسيلة إن لم تبلّغ الغاية فليست بشيء، فالوسائل لها أحكام المقاصد، وسقوط اعتبار المقصود يوجب سقوط اعتبار الوسيلة[17]، وكذلك فالوسيلة فرع للمقصد الأصل، فإذا سقط الأصل سقط الفرع بالتّبع[18]، لذلك كان من الخطأ بما كان فصل التكريم الأوّل عن الثّاني وبناء أحكام شرعية عليه دون ربطه بالثّاني، ففصل الشّيء عن الغاية منه هو إبطال لكليهما، كما أنّ تعليق حكم مطلق التكريم بوصف البشرية جمعاء – الإنسانية – وهو مقتضى التكريم الكوني هو تعليق لحكم على وصف غير مناسب[19]، وتعليق الأحكام على أوصاف غير مناسبة مخالف للسنن الشّرعية التّي تنيط أحكامها دائما بعلل مناسبة تحقّق الحكمة من تشريعها[20]، ذلك أنّ وصف الإنسانية وصف يقتضي في بعضه ضدّ معاني التكريم بتمامها، لأنّ منه الكافر المنجس (نجاسة معنوية اعتقادية) بنص آية أخرى، قال تعالى: ﴿**إنّما المشركون نجس**﴾[21] والكفر

المنارة للاستشارات

وصف غير مناسب لتعليق حكم التكريم به – التكريم الشّرعي[22]– بل هو وصف يليق بضدّ ذلك، لقوله تعالى: ﴿**إن الذين يحادّون الله ورسوله أولئك في الأذلين**﴾(المجادلة 20) فجعل وصف الذّلة الذّي هو ضدّ الكرامة لهذا القسم من النّاس وهم الذّين كفروا وحادّوا الله ورسوله، فكيف يستقيم بعد ذلك إطلاق مسّمى التكريم دون تفصيل.

ومن جهة أخرى فقد ذكر أهل الأصول أنّ من قوادح العلّة ما يسمّى بفساد الوضع: وهو اقتضاء العلّة نقيض ما علّق بها، فيجعل الوصف أو العلّة على محلّ وحكم غير مناسب له، لأنّ من شأن العلّة أن تناسب معلولها لا أن تخالفه[23]، ويقصد به أخذ الحكم من غير محلّه، وقد مثله الفقهاء كما نقله الآمدي: بتلقّي التضييق من التوسيع، والتخفيف من التغليظ، والإثبات من النفي أو العكس[24]، لأن أحكام الشّرع جاءت لتحقيق الحكم والمناسبة هي سبيل ذلك، وهذا شأن مسألتنا هذه، فمطلق وصف الإنسانية لا يناسب مطلق التكريم، ذلك أنّ التكريم نوعان: نوع خلقي كوني، ونوع وصفي شرعي مأمور به فالتوحيد هي الغاية الكبرى وهي محور التكريم الشّرعي، فالغاية من أمانة التكليف ومن التكريم هو بلوغ هذه الغاية، ووصف الكفر وصف غير مناسب لتعليق التكريم عليه بإطلاق كما مرّ معنا بل يقتضي ضدّ ذلك، لأنّه لا يؤدّي إلى هذه الغاية، فتعليق الحكم عليه بإطلاق هو من فساد الوضع – المردود فقها وأصولا– لأنّه يقتضي نقيض ما علّق به وصدق هذا الكلام في نصوص آيات وأحاديث أخرى نستيقن من خلالها أنّ الوصف الكوني الجبلّي لا تأثير له في جنس الأحكام الشّرعية ولا تعلّق له بذاته في الثواب والعقاب بل هو وصف طردي في جنب الأحكام الشّرعية، وانظر لقوله تعالى: ﴿... **إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**﴾ (الحجرات 13)، ولقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: «**إنّ الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[25]، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: « ... **ألا لا فضل لعربيّ على عجميّ ولا لعجميّ على عربيّ ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلاّ بالتقوى** ...»[26] فأبعدت هذه النّصوص كلّ الأوصاف الجبليّة الكونية عن تعلّق بالحكم الشّرعي، وأثبت الأوصاف الشّرعية

المنارة للاستشارات

الكسبية في تعلّقها بالحكم الشّرعي، ممّا يؤكد حقيقة أنّ المناسب[27] المؤثر في جنس الأحكام الشّرعية هي الأوصاف الشّرعية، وهي مناط الثواب والعقاب، وعليه كان التكريم الشّرعي هو الأصل والغاية، وعليه فإيراد وصف التكريم هكذا بإطلاق على مطلق الإنسانية دون تفصيل وبيان من حيث الغاية والهدف منه، هو قصور وتغيير لمفهوم الآية الحقيقي وإيهام بسواسية الإنسان جميعا، وهذا مناقض لحقائق القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿**أفنجعل المسلمين كالمجرمين ● ما لكم كيف تحكمون**﴾(القلم 35- 36)، وقال تعالى أيضا: ﴿**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب**﴾(الزّمر 9)، وهذه نصوص صريحة فارقة مفرّقة بين نوعي البشر: المسلم والمجرم، العالم والجاهل، فهل المجرم مكرّم بجرمه، وهل الجاهل مكرّم بجهله ...

كما أنّ هذا الترتيب والترابط بينهما هو مقتضى الأمانة التّي كلّف الإنسان بحملها في قوله تعالى: ﴿**إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال...**﴾ (الأحزاب 72)، ذلك أنّ من لوازم حمل الأمانة أن يمدّ الإنسان بالعدّة اللاّزمة لذلك، وتلك العدّة هي التكريم بالعقل وتسخير المخلوقات له، ومنه كان هذا التكريم مشروطا بحمل الأمانة، والوفاء بالعهد الذّي أخذ عليه في قوله تعالى: ﴿**وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين**﴾(الأعراف 172) فلأجل ما سيصل إليه من عبودية الله تعالى كان هذا التكريم، وهذه هي الأمانة والعهد الذّي أمر الإنسان بحمله[28]، وعليه كان من اللّزوم والوجوب في ظلّ قاعدة: عدم جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة[29] –باعتبار أنّ التكريم الشّرعي هو تفصيل وتبيين لأصل التكريم الأوّل – كان من اللاّزم التفصيل في مسألة التكريم وربط الأوّل بالثاني عند الكلام عن أصل الكرامة الإنسانية لتتكشف الصّورة على حقيقتها (وسيلة ومقصدا) ولا يحدث الالتباس في الحقيقة الشّرعية التّي كشفت لنا عن الارتباط التلازمي بين التكريمين، فذكر أحدهما دون الآخر هو طمس لمعالم الحقيقة الشّرعية، وتلبيس في مفهومها.

المنارة للاستشارات

خاتمة:

– وفي الختام لا يسعني إلاّ أن أقدّم بين يدي القارئ جملة من النتائج والتوصيات:

النتائج:

1– الاعتقاد أنّ الشّريعة الإسلامية حاكمة ومحيطة بكلّ تصرّفات العبد، فتبدأ معه من أوّل الخاطرة إلى إنفاذه للفعل، فيجد فيها النتائج والحلول لمشاكله الفكرية والعملية معا.

2– الإجمال في معرض البيان والتفصيل غموض وتلبيس.

3– لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة.

4– التلاعب بالمصطلحات اللغوية هو إخلال بالمفاهيم الشّرعية، لأنّ الألفاظ وعاء المعاني فإذا اختلّ ميزان اللّفظ اختلّ معه مفهوم اللّفظ.

5– الحقيقة الشّرعية مقدّمة على الحقيقية العرفية وعلى الحقيقة اللّغوية، فإذا تعارضت الحقائق كانت الحقيقة الشّرعية هي المقدّمة وهي الأصل، ذلك أنّ الألفاظ الشّرعية هي أصالة لبيان الحقائق الشّرعية.

التوصيات:

1– ضرورة الاعتناء بالمصطلحات الفكرية المعاصرة، فكثير منها معاكس للمفاهيم الشّرعية

2– الفكر صنو الفقه، كلّها من النّاحية الشّرعية من مشكاة واحدة، وتخضع لنفس القواعد والأصول والمقاصد الكليّة.

الهوامش والإحالات:

(1)– محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر– بيروت، د.ط، ج12، ص 510– 512.

(2)– محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة مؤسسة الرسالة– بيروت، ط8، 1426هـ– 2005م، ص 1154.

(3)– أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللّغة، تحقيق: عبد السّلام هارون، دار الفكر، د.ط 1399هـ– 1979م، ج5، ص 171– 172.

(4)– محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي مؤسسة الرسالة– بيروت، ط1، 1427هـ– 2006م، ج 13، ص 125– 126.

المنارة للاستشارات

(5)– محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، تحقيق: بشار معروف وعصام الحرستاني، مؤسسة الرسالة– بيروت، ط1، 1415هـ– 1994م، ج15، ص 5.

(6)– محمد بن عمر الزمخشري، الكشّاف، تعليق: خليل شيحا، دار المعرفة – بيروت، ط3، 1430هـ 2009م، ص 603.

(7)– إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي السّلامة، دار طيبة– الرياض، ط2 1420هـ– 1999م، ج5، ص 500.

(8)– الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر وعثمان ضميرية وسليمان الحرش، دار طيبة– الرياض، 1409هـ، ج8، ص 287.

(9)– الزمخشري، الكشّاف، ص 931.

(10)– عثمان بن سعيد الدّارمي، نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد تحقيق: أبو عاصم الشوّامي الأثري، المكتبة الإسلامية–القاهرة، ط1، 1433هـ–2012م، ص 79.

(11)– القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج13، ص 126.

(12)– ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج7، ص 425.

(13)– ابن جرير الطبري، تفسير الطبري، ج19، ص 196 وما بعده، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج6، ص 488.

(14)– عن معاذ بن جبل قال: قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: «يا معاذ، أتدري ما حقّ الله على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، أتدري: ما حقّهم عليه؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: أن لا يعذبهم» محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار ابن كثير دمشق، ط1 1423هـ– 2002م، كتاب التوحيد، باب: ما جاء في دعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم أمّته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، رقم: 7373، ص 1820.

(15)– محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار عالم الفوائد– مكّة المكرّمة ط1، 1426هـ، ج6، ص 698.

(16)– ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج8، ص 457– 458.

(17)– محمد بن محمد المقرّي، القواعد، تحقيق: أحمد بن عبد الله بن حميد، مركز إحياء التراث الإسلامي مكّة المكرّمة، ج1، ص 329.

(18)– ينظر: عبد الوهّاب بن علي السبكي، رفع الحاجب شرح مختصر ابن الحاجب، تحقيق: علي معوّض وعادل عبد الموجود، دار عالم الكتب، د.ط، ج4 ص 291، وينظر أيضا: تقيّ الدّين ابن دقيق العيد، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تحقيق: أحمد شاكر، دار عالم الكتب ط2، 1407هـ– 1987م، ص 262.

المنارة للاستشارات

(19)– الوصف من حيث هو قسمان: 1– مناسب: كالإسكار لتحريم الخمر، والصّغر للولاية على المال 2– طردي: وهو الذّي ليس في إناطة الحكم به مصلحة كالطّول والقصر، ينظر: محمد الأمين الشنقيطي، مذكرة أصول الفقه على روضة النّاظر، دار عالم الفوائد – مكّة المكرّمة، ط1، 1426هـ ص 395 وص 410.

(20)– فمن شروط العلّة: أن تكون وصفا ضابطا لعلّة، ينظر: السبكي، رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب، ج4، ص 178.

(21)– أي نجاسة معنوية، يقول النّووي رحمه الله في هذه الآية: «وأمّا قوله تعالى ﴿**إنّما المشركون نجس**﴾ فليس المراد نجاسة الأعيان والأبدان بل نجاسة المعنى والاعتقاد، ولهذا ربط النبيّ صلى الله عليه وسلم الأسير الكافر في المسجد، وقد أباح الله تعالى طعام أهل الكتاب، والله أعلم» يحيى بن شرف النّووي، المجموع شرح المهذّب، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد– جدّة د.ط، ج2، ص 580.

(22)– لأنّ التكريم الشرعي فيه تزكية للنفس وطهارة للاعتقاد ابتداء، والكافر نجس المعتقد بنصّ الآية وهذا لا يستقيم مع التكريم الشرعي بل هو ضدّه.

(23)– سليمان بن عبد القوي الطّوفي، شرح مختصر الرّوضة، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي مؤسسة الرسالة– بيروت، ط2، 1419هـ– 1998م، ج3، ص 472.

(24)– الطّوفي، شرح مختصر الرّوضة، ج4، ص 90.

(25)– أبو الحسين مسلم بن الحجّاج، صحيح مسلم، تحقيق: صدقي جميل العطّار، دار الفكر– بيروت ط1، 1424هـ– 2003م، كتاب: البرّ والصّلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، رقم: 6438، ص 1270.

(26)– صحّحه الألباني في السلسلة الصّحيحة، محمد ناصر الدّين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف، ج6، ص 449– 450.

(27)– المناسب: هو وصف ظاهر منضبط يحصل عقلا من ترتيب الحكم عليه ما يصلح أن يكون مقصودا من حصول منفعة أو دفع مفسدة، ينظر: السبكي، رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب ج4، ص 330.

(28)– القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج9، ص 375.

(29)– قال الشنقيطي رحمه الله: «لا خلاف في أنّه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة» محمد الأمين الشنقيطي، مذكرة أصول الفقه على روضة النّاظر، ص 290.

المنارة للاستشارات